كَفَاءَةُ النَّسَبِ وَزُيوفُ الجَاهِلِيَّةِ

تأليف
إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين



كَفَاءَةُ النَّسَبِ وَزُيوفُ الجَاهِلِيَّةِ

الحمد لله الذي خلق فسوّى، وقدّر فهدى، خلق الآدمي من تراب وجعله مآله قبل النشور، فإذ بهذا الكائن الترابي متكّبرًا على من سِوَاهُ من أشباهه، بل يستكبر على أمر من خَلَقَهُ وصوّره وسوَّاه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧] ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٣] ترابٌ فنطفةٌ فدمٌ فمُضغةٌ فعظمٌ فجسدٌ فجيفةٌ فترابٌ! فرجع المغرورُ في رمسه لأصله الأوّل!

لكنك ــ يا من أكرمك الباري ــ بالروحِ كائنٌ عُلْوِيٌّ سماويٌّ، كيف لا وقد نُفِخت روحك الأولى نفخةٌ شريفةٌ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] فارتفعَ ذيّاك الإنسانُ وسَمَا مُحلّقًا مع الأملاك طائعًا لربه عابدًا معظِّمًا، فرفعه الله على جُلِّ مخلوقاته: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ

ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الإسراء: ٧٠] فمن رَامَ تلك الديمومة المَرْضية فليسلك سبيل أبويه الجليلين بحاله ومقاله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] وكما قال نبيه الأعظم عليه الصلوات والبركات والتسليم: «**أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**» رواه البخاري، وكما أوصى أمته بقوله الكريم الناصح: «**إن الله عز وجل أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ولا يبغي أحد على أحد**» وقال: «**وما تواضع أحد لله إلا رفعه**» رواهما مسلم. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال والحق قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ١٣].

لقد ذَكَرَ ربُّنَا الغاية بقوله: ﴿لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ ولم يقل: لتفاخروا. ثم أكّد تلك الغاية بقوله الأعز: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

وأشـهد أن محمـدًا عبـده ورسـوله، بعـث إلينـا بالحنيفيـة الـسمحة ليـضع عـن ولـد إسـماعيل ومـن تبعـه أغـلال بنـي إسرائيـل، صلى الله وسلم وبـارك عليه وعلى آلـه وأصحابه، فيهم تقدّم الخبر، وفي فضلهم صحّ الأثرُ، صدورهم سليمة، وقلـوبهم باسـلة، لم تفـسدها الأهـواء، ولم تخامرهـا الأدواء، العـارفين بمعاقـد المعـاني وقواعـد المبـاني ، أُسْـدُ النهـار رهبـانُ الليـل، لهـم علـوم وأعـمال يـسوطون بهـا مـن خـالف أمـر ربـه وأبى، دون مـن أطاعـه وأتـى، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وعمّـن تبعهـم بإيمان واستنّ بهم بإحسان، أما بعد:

تواضعْ تكن كالنجم لاح لناظرٍ على صفحات المـاء وهو رفيعُ
ولا تكـن كالـدخان يعلـو بنفسه على طبقات الجوّ وهـو وضيعُ

صـاحبي، عرفتـه منـذ زمـن، نابـه الـشأن، كـريم المغـرس، ألهـب الـشيب فوديـه، وعلـت وجهـه مسوح حـزن صـارت لـه وجهًا من شدّ ما كسته، فصار المطبوع الطابع، ليس بالكبير سِـنًّا، لكـن فطـر فـؤاده الألم، وأضـنى حُـشاشته الهـمّ، وكبّلتـه الأحـزان، واعتورتـه الغمـوم، تمـر عليه الساعات واجمًا كئيبًا،

كلما طار عنه غراب غمٍّ حطت عليه أسراب غربان، ما باله؟! ما الذي دهاه، ما الخطب الذي قلقل فؤاده، ويتّم أفراحه، وألقى بِجِرَانِ الحزن على سويداء قلبه، فلا يحول عنه ولا يزول؟!

والهمّ يخترمُ الجسيمَ نحافةً ويُشِيبُ ناصية الصبي ويهرم

خلوت به أثناء سفر طويل(١)، وكلما حاول علاج حزنه باصطناع الفرح تنكّس حاله، وذبلت البسمة في شفته، فتخرج خديجة بل وئيدة!

وفي لحظة صفاء نادرة، اهتبلتُ ورودها على خاطره الكسير الكئيب؛ همست في أذنه: أبا فلان: لي عندك حاجة مجلجلة في صدري من زمن فهل أنت سخي بها أم ضنين؟ قال: قل ما بدا لك، لا تخش حملًا لظغينة، ولا منعًا من حمىً، ففؤادي فد فُتحت فيه كوّةٌ لنجواك.

قلت: ما بال حزنك القديم، وغمّك التليد؟! كأنّما

(١) رقمتُ ذلك السَّفَرَ في سِفْرٍ بعنوان: «وقد يجمع الله الشتيتين».

خُلِقْتَ من طينة حزن لا سرور فيها، وي كأنّك لم تسمع بالرضى بالله وبقضائه، وبانشراح الصدر وانفساحه بالإيمان والقرآن، وبالتأسّي بسيد الصابرين الشاكرين الحامدين، ومهما كان مُلهم حزنك ومُمِدُّ غمّك فهو باطل إن زاد عن حده، وخرج عن طوره، أوليس كل ما فوق التراب تراب؟!

فنظر إليّ برهة قد كادت تلوح من بين شفتيه ابتسامة ويشعّ من عينيه بريق سعادة، وتضيء وجنتاه بجذل، ثم شرد شيئًا، فلم يلبث وجهه الحسن أن امتقع، فأضحى كأشباح الموتى، ثم زَفَرَ زفرة كادت تخلع فؤاده من معاليقه، واحمرّت عيناه بدموع حرّى ألهبت المحجرين، وسجمت على الخدين، ألا ما أمرّ بكاء الرجال! ثم أطرق مليًّا، كأنما راعته الذكرى، وهو يغوص في لجج بحر لم يحسن فيه العوم، فصارت أمواجه تتقاذفه يمنة ويسرة كريشةِ نورسٍ في لجّة مضطربة. ثم أطرق وأطرق حتى مللتُ المكوث، وبعد طول انتظار رفع وجهًا كأنما يُساق إلى المشنقة، أو كأنما أبٌ مكلومٌ ينظر إلى شمله صرعى إثر سيل هادر، أو قصف غادر!

قد كان يمنعني الحياء من البكا   فاليوم يمنعه البكا أن يمنعا

ثم قال: أبا ثابت! قد سألتني جوابًا وناشدتني إجلاءً، ولولا مكانك من السويداء ما ألقيت لك بالًا ولا راعيت لك شأنًا، لكنه القَدَرُ والقَدْرُ..

إني مُنبيك عن شأني؛ فأصغ وارحم، واحمل لأخيك وافر الأعذار، واعذل أهل زمانه، فقد فطروا فؤاده، وأدموا شرخ شبابه وهدموا عالي بنيانه، واسأل الله العافية والمعافاة من أحمال لا يطيقها مرهفو الأفئدة، ورِقاقُ الحواشي، إذ جاءت الفرقة فاغرةٌ فيها!

أَرَقٌ عَلى أَرَقٍ وَمِثْلي يَأْرَقُ   وَجَوًى يَزيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ
جُهْدُ الصّبابَةِ أَنْ تكونَ كما أُرَى   عَينٌ مُسَهَّدَةٌ وقَلْبٌ يَخْفِقُ
مَا لاحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنّمَ طائِرٌ   إلاّ انْثَنَيْتُ وَلي فُؤادٌ شَيّقُ
جَرّبْتُ مِنْ نَارِ الهَوَى ما تَنطَفي   نَارُ الغَضَا وَتَكِلُّ عَمّا يُحْرِقُ
وَعَذَلْتُ أَهْلَ العِشْقِ حتى ذُقْتُهُ   فعجبتُ كيفَ يَموتُ مَن لا يَعشَقُ

قد كان من نبئي قبل أربعين سنة حين كنت في ميعة

صباي ثم ريعان عمري مغرمًا بفتاة، قد سلبت لبي، وهتكت عقلي، وأجمّت فؤادي، قد بادلتني الهوى، وطارحتني عُذْرِيَّ الغزل، وأحبّتني كما لم تحب كل من عرفت من البشر، حبًّا عُذْريًا، وغرامًا صافيًا، وعشقًا عفيفًا خاليًا مما يفسده، وكنت لها بالمثل بل أزيدُ، فقد كنت أرقب السحاب وأراها تمتطيه، والقمر وقد تبسمت من خلال مآقيه، قد رأيت الحسن من خلالها، ورقّ طبعي بعد خشونته، وأُرهف إحساسي بعد كثافته، فعِشْتُ متيّمًا بها، سعيدًا بذكراها وهمسها، إخال صبا نجد من أنفاسها، وبرق الوسم من ضحكها، ونسيم الخزامى من جديلها، قد مرّ بي زمان ما أعذبه! وعذابٌ ما أطيبه! وشجون ما أجملها، قد تطارحْنا الجوى، وبكينا الهوى، ولم يبق من تلك الأيام سوى ذكريات كأنها أطياف خيال، أو أحلام منام، فهل نُراها تعود، قبل وداعي بالرحيل الأخير؟!

قلت بقلق وفضول: وما الذي جرى؟ ألم يُرَ للمتحابين مثل النكاح؟ فعلام كُسر الشراع، وما بال سفينة الهوى لم ترسُ على شاطئ الزواج؟ أَوَتُرَاكَ لحقت: كأن لم يكن بين

الحجون إلى الصفا؟!

قال وقد تبسَّم تبسُّم الحيران: قد تُرِكَ ما هنالك يا محب؛ فقد أسرتني عوائد قومي فاقتادتني مكبّلًا لبيداء الأحزان، فطرحتني وصرعتني ثم أهالت علي كثبان الهموم، وما أتعسه من خيار! وقد كنت قبل اليوم صعبًا قياديا..

عيبُها الذي وصَمَهُ بها صِبْيَةُ الأحلام ــ وكم من غُلَيْمٍ في مِسلاخِ كهل! ــ أنّها ليستْ قبليّة، وفي عرفهم الجاهلي بما أَنِّي ذو نسب أصيلٌ، فعليه لا ارتباط بغير نسيبه! ألا تعسًا لجوخِ الكبر، وبئسًا لمروط الخيلاء! والحُرُّ لا يُقرَعُ بالعصا!

فيا دارها بالحزن إن مزارها قريبٌ ولكن دون ذلك أهوالُ

ألا إن عوائد الأسلاف ونكائد الأجلاف التي ما أنزل الله بها من سلطان قد حالت بيني وبينها، فهل رأيت مَنْ حال بين الروح والجسد، والرئة والهواء، والمدنف والدواء، هم أولاء قد قتلونا، وماء الحياة قد سلبونا...

كفى بكَ داءً أن ترى الموت شافيا وحسبُ المنايا أن يكُنَّ أمانِيا
تمنيتَها لما تمنيتَ أن ترى صديقًا فأعيا أو عدوًّا مداجيا

ولم يبق من شريكة روحي وساكنة فؤادي وملهمة أنفاسي؛ سوى الذكريات الحالمة، والمشاهد الهائمة.. ولقد سميت ابنتي بها "هند" ولها في قلبي منزلة لا تساميها أخواتها بل ولا أُمُّهُنَّ، وكنت ولم أزل لا أُخفي تلك المنزلة المنيفة، ولا يعرف السرَّ مخلوق سواي وهندٌ الأولى..والأخيرة!

كفكفي الدمع يا عين فقد حرّق الخدين سيلك الدفّاقْ
بضّت الدمعةُ كالطلّ وقالت هبني كففتُ فكيف بالخفّاقْ؟!

ولا عزاء لي من فراقنا سوى ثلاثة أمور:

أولاها: أني أحتسبها ونفسي عند ربي، فكلانا قد فارق هناء الدنيا وسعادة اللقى، فلعل الله يرحمنا فيرفع درجتينا عنده إذ رأى عذابنا وعفافنا.

ثانيها: أني أنتظرها في جَنَّةِ عدن، فقد ضربنا الموعد هناك، هي الآن تحمل شهادة العالمية الدكتوراة ولم تتزوج!

وإذا أراد الله أمـرًا هيّـأ أسـبابه، ولا تعـذلني في أمـري، فللمحبين أمور لا تطيقها ألسنتهم.. بأبي من كانت للعهد أحفظ مني!

ثالثها: أني قد سميت بنيّتي باسمها، ففي كل وقت أهذي بها مناديًا فتجيبني صغيرتي وقد جهلتْ أني أنادي طيف خيال عرض لقلبي وانسدل بين عيني..فلو رأتني هاتفًا مناديًا؛ لذاب قلبك وانماع رحمة وشفقة وحنانًا. حالنا في الوداع الأخير قد ترنّمنا ترنيمة السَّحَرِ بلُغة المدنفين للفراق والرحيل:

طَعَنَ الرَّحيلُ محاجرَ الأحداقِ يا من يداوي لوعةَ المشتاق
يا مهجَتِي لا تغدُرِين بمهجتي فالرُّوحُ قد نُزِعَتْ من الخفّاق
كادت تَكلّم والدموع ترقرقت فالدمع من سمّ الهوى مهراق
جادت بدمعٍ كالجمان وأجهشت ما للملوّعِ عندنا ترياق
إن المنونَ وإن تقارب وِرْدُهَا ليست بأبأس من قدومِ فراق
إنّا وإن طال الزمان بفقدكم فالشوق يا صبّ الهوى منساق
غابت وغاب النورُ من عين الفتى وسَرَتْ جنائز الأرواح بالعشاق

قلت: حسبك يا ودود فما في القلب للبقية من طاقة، وما للروح في لاعج الجوى من محمل، علّ الرحيم يسقي قلبك سكينة مترعة، وطمأنينة مشرعة..

وفي نظرة الصادي إلى الماء حسرةً   إذا كان ممنوعًا سبيل الموارِدِ

ثم هتفتُ به: يا صاحبي: يا من ذكّرَنِي الطعنَ وكنتُ ناسيًا، ليس حالك بمعزل عمن سبقك ولحقك، ممن تلوّعوا بحُكْمِ أوضارِ الجاهلية لِبَنِي قومهم، وطَبَعَتْهُم بألوانها! وكم من أُسَرٍ قُطِّعتْ أواصرها وفرّقت أشتاتًا، وحيل بين الوالد وولده بل أولاده، بسبب طيش التقاليد التي بثتها أدخنة الفخر الباطل في أخلاق بعض الناس، ووسوسها أبو مِرَّة في صدورهم! فحالُك ومثالك لا يكاد يُذكر بجانب قصص الشناعة التي سارت بها الركبان.. وإن كانت مأساتك قد كسرت مجاديف الهناء، فلا يقدّرها من لم يكابدها ويصلاها!

لا يعرف الشوق إلا من يكابده   ولا الصبابة إلا من يعانيها

لقد ضجَّ قلب صاحبي مما لا يطيق حمله! لكن:

وإذا عَرَتْـكَ بليّـة فاصـبر لهـا   صـبر الكـريم فإنـه بـك أعلـمُ
وإذا شـكوت إلى ابـن آدم إنـما   تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحمُ

أيا صاحبي! إن الموضوع أكبر وأخطر من أن يُختزل في الكفاءة الزوجية، بل هو أكبر من ذلك فهو منهج حياة منحرف عند كثير ممن يدينون بالاستسلام لله تعالى، بل وينافحون عن دينه ديانة وتقربًا، فبعضهم أُخذ عن غفلة، وثانٍ عن جهل، وآخر عن خطيئة مقصودة وهكذا، والله لا يصلح عمل المفسدين. ولقد نادى على نفسه بالجهل والسفه من فَرَزَ عباد الله بأنسابهم دون إيمانهم وأخلاقهم..

ولستُ أعني نقض الأنساب واطّراح الانتساب، فليست هذه مما نحن بسبيله في شيء، إنما قصدتُ على وجه التحديد الفخر بالأنساب والأحساب وجعل ذلك معيارًا تُقاسُ به أفضلية بني آدم، ويرفعُ بعضهم ويُخفض على وفقها! أو ليس كافيًا في نبذ ذلك أن أول من افتخر بأصله إبليس حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾؟!

وهـذه القـضية المريـرة هـي مـن محـاك التـسليم لله، وكـم وَضَرَتْ ديانـة أخيـار! وكـشفت نـتن جاهليـة أكـابر! وأزالـت قناع تسنن مدعين! وما يوم حليمة بِسِرّ!

هـذا، ولـيس كـل مـن التاثـت بـه تلـك الأدخنـة غافـلٌ أو جاهلٌ أو فَدْمٌ أوأَنْوَكٌ بـل ولا متعمـدٌ لازدراء واحتقـار، كـلا فبعضهم نبلاء أفاضل، ومؤمنون بررة، وعقلاء نوابغ، لكـن أبهـرهم وهـج العنـصرية وأعـشاهم بريـق الحميّـة، فطـواهم الخـذلان تحـت جناحـه، ثـم ألقـاهم حيـث حطّـت رحلهـا أم قشعم!

ولا يمنع ما ذكرناه من حفظ حقوق من وصّى بهم نبي الاسـلام كآلـه، فلهـم حـقّ التكـريم والتقـدير، ومـن بعـدهم الأنصار، لكن بلا تعاظم ولا تكبّر، فليس ذلك لأحدٍ بحال، فهـما رداء الجبـار وإزاره، مـن نازعـه فـيهما عذبـه. وقـال جـل جلالـه: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقـال ﷺ: «**مـن بطّـأ بـه عملـه لم يـسرع بـه نـسبه**» رواه

مسلم.

بل إن الجاهلية قد ذُمَّت على لسان المصطفى ﷺ، حتى وإن كانت صادرة من ذي سابقة وقدم في الإسلام، ولما تكلّم بها بعض الأصحاب الأكابر جَبَهَهُ رسولُ الله ﷺ بقوله الصاعق: **«إنك امرؤ فيك جاهلية»** رواه البخاري. وإذا حقت الحقائق وازدحمت العلائق فالعبرة بالتقوى، والشرف بحسن الخصال لا الدعاوى والانتساب:

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله فما الذي يغني كرام المناصب

وما الفخار يا سادة بأصلٍ وفصلٍ دون تحقيق أصالة معدن الفرع إلا من قبيل قبض الريح! فخذوا أو فَدَعوا. وهذا موضعٌ لا يعيبهُ إلا جاهلٌ، ولا يعترضُ عليه إلا معاندٌ.

ومن لطيف كَلِمِ شيخِ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قولُه: الاحتجاج على فضل الإنسان على غيره بفضل أصله حجّةٌ فاسدةٌ، احتجَّ بها إبليس، وهي حجّة الذين يفخرون بأنسابهم، وقد قال ﷺ: **«من قصّرَ به عملُهُ؛ لم يُسرعْ به نسُبُه»**

(الفتاوى: ٦/١٥) وقال ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ اللهُ في معرض حديثه عن عيوب النفس ومنها العُجب: «وإن أُعجِبتَ بِنَسبِك فهذه أسوأُ من كل ما ذكرنا، لأن هذا الذي أُعجِبت به لا فائدة له أصلًا في دنيا ولا آخرة. وانظر هل يدفع عنك جَوْعَةً، أو يستر لك عورة، أو ينفعك في آخرتك...فإن أعجبت بولادة الفضلاء إياك فما أخلى يدَكَ من فضلهم إن لم تكن أنت فاضلًا، وما أقلّ غِناهُم عنك في الدنيا والآخرة إن لم تكن محسنًا، والناس كلُّهم أولاد آدم الذي خلقه الله بيده، وأسكنه جنته، وأسجد له ملائكته...وإذا فكّر العاقل في أن فضل آبائه لا يقرِّبُهُ من ربِّه تعالى، ولا يُكسبه وجاهةً لم يَحُزْهَا هو بسَعْدِه، أو بفضله في نفسه، فأي معنًى للإعجاب بما لا منفعة فيه؟! وهل المعجب بذلك إلا كالمعجب بمال جاره، وبجاه غيره، وبفرس لغيره سبق كان على رأسه لجامه؟! وكما تقول العامة في أمثالها: كالغبي يزهو بذكاء أبيه. فإن تعدّى بك العُجْبُ إلى الامتداح؛ فقد تضاعف سقوطُكَ لأنه قد عجز عقلك من

مقاومة ما فيك من العجب، هذا إن امتُدِحْتَ بحقٍّ، فيكف إن امتُدحتَ بالكذب؟! وقد كان ابن نوح وأبو إبراهيم وأبو لهب عمّ النبي ﷺ أقرب الناس من أفضل خلق الله تعالى، وممن الشرف كلّه في اتّباعهم فما انتفعوا بذلك» (مداواة النفوس، ابن حزم: ١ / ٧٤ ـ ٧٥) باختصار.

وَيْكَأَنَّ عَدَمَ التفضيلِ بالنسب محلّ وِفاقٍ عند كثير كبراء أمم المعمورة، قال الأديب الفيلسوف برنارد شو موصيًا صاحبه وقد تأذّى من نحو ما ذكرنا: سامِحْهُ، فهو يظنُّ أن عادات قبيلته هي قوانين الطبيعة!

هذا وإن لأسلاب الجاهليةِ ومسوح الكبر صفحات وزخّات تتعاقب كل يوم وليلة بين فجاج المسلمين، فتارة بوصم أخيه بنبزه بجهته شرقًا أو غربًا ونحو ذلك، وتارة بوصمه بجهالة نسبه أو اتضاعه في عيني الجاهليّ الهمّاز، ومرّة بلونه، أو جنسه، أو لغته، وكرّة بوصمه بولادته خلف سياجه الذي ركزته أيدي صليب سايكس بيكو وقد يكونا منحدرين من أب واحد! فضحكت الأمم على من شابه

الأنعام في أحلامها!

ألا إنما التقوى هي العز والشرف فلا تترك التقوى اتكالًا على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب

فعلى قدر تقوى القلب يُعطى العبد حظّه من الولاية، قال جل وعز: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٣]، فبمقدار التقوى يكون تحصيل الولاية. وفي البخاري عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ جهارًا غير سرٍّ يقول: «**إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين**» وفي المسند والسنن عنه ﷺ أنه قال: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أبيض، ولا أبيض على أسود، إلا بالتقوى. الناس من آدم وآدم من تراب**» رواه أحمد (٥/ ٤١١) والترمذي (٣٢٧٠) وحسنه الألباني.

وكم قيل في التألّم من ذلك النَّفَسِ الجاهليّ على لسان

العامَّة والخاصة ذكورًا وإناثًا من تفجّعات وتأوهات، مُرسلة من حنايا صدورهم ونفثات قلوبهم، قد حوت حزنًا دفينًا ومعنىً غائرًا، متضمنةً نداءً سحيقًا لبعض من ظنوا أنهم أسياد الكوكب، ولكأنما لا مشارك لهم من بني أمهم وأبيهم الأكرمين.

ولقائل أن يسأل: وهل نَبَذَ الإسلامُ النَّسَبَ جُملة وتفصيلًا؟

والجواب: أن الشريعة هذبت مقام النسب ولم تنبذه، فلم يُبعث نبي إلا في ذرى نسب قومه، وشرف محتدهم، فللنسب منزلته المحفوظة في الإسلام، الغرض منه الصلة، ثم التعاون على البر والتقوى بدءًا بالأقرب فالأقرب، كما في خطبته ﷺ لقريش لما عمّ وخصّ: «**يا بني كعب بن لؤي..يابني عبد مناف..يا بني هاشم..يا بني عبد المطلب..يا فاطمة..**» متفق عليه مختصرًا. ومن أغراض الشريعة السامية كذلك؛ الاجتماع على نصرة الدين، كما كانت العرب تجتمع تحت راياتها في صدر الإسلام، أما التفاخر وتنقّصُ الآخرين فليس

من الإسلام في شيء.

ألا وإن النسب الكريم مِنْحَةٌ من الكريم، حقيقةٌ بالشكر ومن فروعه التواضع، وعلى المرء أن لا يحسد من فوقه نسبًا، لأن النسب معدود في الأرزاق التي قسمها الرزاق ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ لكن هذه النعمة ترتدّ نقمة إن قابلها استعلاء على عباد الله، والنسب ليس من كسبه بل هو منحة لم يقدّرها، فعادت على المخذول وبالًا في أُخْرَاه.

ليس من مات فاستراح بميْت إنما الميْتُ ميّتُ الأحياء

وفي أحمد(٢/ ٣٧٤) والحاكم وصححه (١٧٨/٤) أن رسول الله ﷺ قال: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر**» وفي الأدب المفرد وصححه الألباني أن رسول الله ﷺ قال: «**احفظوا أنسابكم تصلوا أرحامكم، فإنه لا بعد بالرحم إذا قربت وإن كانت بعيدة، ولا قرب بها إذا**

بعدت وإن كانت قريبة، وكل رحم آتية يوم القيامة أمام صاحبها، تشهد له بصلة إن كان وصلها، وعليه بقطيعة إن كان قطعها» وقال عمر بن الخطاب: «تعلموا أنسابكم، ثم صلوا أرحامكم، والله إنه ليكون بين الرجل وأخيه الشيء، ولو يعلم الذي بينه وبينه من داخلة الرحم لأوزعه ذلك عن انتهاكه» (الأدب المفرد: ١/٣٩).

ومن جدير التنبيه؛ أنه يوجد كثير الآن ممن أصولهم عربية أصيلة قد أضاعوها لأسباب كثيرة كالدماء، فتركب العربيَّ جنايةٌ تضطره للجلاء عن أهله وقبيلته متخفيًّا تحت اسم آخر ونسب مختلف، كذلك الهجرة في طلب الرزق، وانقراض الأقارب، وقلة التدوين بل عدمه أحيانًا إلى وقت قريب، فاتخذها بعض صيود أبي مِرّة ذريعة يتوسلون بها الى تسويغ الطعن في أنسابهم والحطّ من شأنهم. وفي الحديث الصحيح: **«اثنتان في الناس هما بهم كفر؛ الطعن في النسب، والنياحة على الميت»** وقد لقيتُ فئامًا من الباكستان ومصر والسودان واليمن قد اندثرت أنسابهم واندرست شجرة

أنسابهم بكَـرِّ الجديـدين، ومـا مـن حـافظ حينهـا ممـن يحسن التوثيـق، وقـد ذكـروا أنهـم مـن سـلالة الدوحـة النبويـة فهـذا ينتسب للحسن السبط، وذاك يذكر أنه من الآل من بقايا بني العباس لما تفرّقوا في القرن السابع بعد الجرم التتري ببغداد.. إلخ كذلك فمن أسباب ضياع نسب العربي اضطراره للزواج ممن مولاةٍ بسبب مرض ألم به أو فقر أو عاهة سبّبت عزوف قبيلته عن تزويجه حتى إذا رأوه تزوج من غير نسيبةٍ هجروه وأزروا به! وأسقطوه من نسبهم، والعجب لا ينقضي من أن هذا الإنكار لا يكون عند زواجه ممن هم من بلاد أخرى! مما يـدل عـلى الاضـطراب في النظـر وعـدم التـوازن في الأحكـام العرفيـة القبليـة، كما قد يهجره قومه لحرفة لزمها يـرون عيبهـا لاحقًا بهـم ولاصقًا إن لم ينفوا ذلك الصُّنع بزعمهم! والـدُّرُّ دُرٌّ برغم من جَهِلَه، وكم تحت الرَّغوة من لبن صريح.. لسان حال الكثير:

أقيموا بني أمي صدور مطيّكم فـإني الى قـوم سـواكم لأمْيَـلُ

ومن باب الشيء بقرينه وضديده فغير قليلٍ من المنتسبة

للقبائل ليسوا منها في الحقيقة، وإن كانوا عربًا أقحاحًا صليبةً ـ والعجب ممن يزايد بالفخار والعلو بمن ليس منهم! وملعون من انتسب إلى غير أبيه! ـ بل هم متصلون بقبائل أخرى، وإنما انتسبوا إلى هذه القبائل لأجل الحِلفِ ونحوه، فحملوا اسم القبيلة وانتسبوا لها، ولا تكاد تخلوا قبيلة كبيرة في هذا الزمان من بطون تحمل اسمها انتسابًا ظاهرًا مع إقرارهم بأصولهم الأخرى، بل بعضهم ساد وترأس القبيلة المتحالف معها في الأساس، وهذا مقرر مشهور ومسلم مسطور في بعض كبريات قبائل الجزيرة في هذا الزمان..وإنشادُ الأخيار:

إن يختلف ماء الوصال فماؤنا　　عذب تحدّر من غمام واحد
أو نفترق نسبًا، يؤلف بيننا　　دينٌ أقمناه مقام الوالد

وبالجملة؛ فبسبب ندرة الكتابة والتوثيق، ونزوح القبائل، وهجرة بعضها، وشتات بعضها، واختلاط الأحلاف بالأصول؛ حلّت سحابةٌ رماديةٌ على كثير من القبائل والبطون، ولا يعني هذا التشكيك في وصولها

لأصولها واتصالها بأنسابها ــ حاشا ــ ولكن المقصود أنه قد شاب بعضها ما شابها من عوارض نَسَبِيّة خلال القرون العشرة الماضية، والناس مؤتمنون على أنسابهم، وكم من مغموز في صورة غامز!

كما أن المغالاة في التنقيب النَّسَبيّ إيجادًا أو إعدامًا ليست بجادة سليمة، فلم نُخلق لتحقيق ذلك، بل لتحقيق التقوى لا غير، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ والبقية تبع فكيف إن طغت على الأساس بأن صار التفضيل والتمييز بها؟!

ليس الفتى من يقول كان أبي   إن الفتى من يقول هأنذا

كما أن في المقابل من يجنح لغلو مقابل فيطّرح مبدأ الأنساب جملةً، ولا يقيم له أي اعتبار، بل غالى بعضهم فنادى بإلغاء النسبية واستبدالها بالجدّ الأول فحسب، بزعم القضاء على العصبيّة القبلية، وهذا لعمر الله ضلال مبين، ورد الباطل بشبيهه ومثله، والباطل لا يرد بالباطل بل يرد بالحق، كما أن البدعة ترد بالسنة لا ببدعة مضادة. ورسولُ الله ﷺ

قد أقر القبائل على أنسابها، وجعل لهم رؤساء وعرفاء، وجعل عليهم ديات العاقلة، وفي رد الزكاة على فقرائهم، وتشكيل الكتائب الجهادية تحت رايات قبائلها. وتأمل فتح مكة، ثم فعل الصحابة في القادسية واليرموك وغيرهما، وكيف صار في الاجتماع العصبي عزّ لحزب المؤمنين، ونكاية في الكافرين. وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته شيئًا من فوائد العصبية المنضبطة، واستشهد بأن كلّ نبيّ يُبعث في عصابة من قومه لأجل النصرة والمنعة ونحو ذلك.

والحق فضيلة بين رذيلتين، وهداية بين ضلالتين، لا وكس بالإلغاء، ولا شطط بالإيغال.

ولا أظن تقديم النسب في التعريف قبل الاسم من التواضع في شيء، ومن ترفّع عن غبراء الناس اتّضع.

وبالجملة؛ فمدح النسب وفضله للمظنة لا للتحقيق كما حرّره ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالظن في جملة المعدن بالخيريّة لا يعني تفضيل أفراده وأعيانه، فالتِّبْرُ يخرج منه الحجر والرّصاص والغبار إلى جانب الذهب الأحمر النادر، وما كل

ما يلمع ذهبًا ولا كل بيضاء شحمة!

قال شيخ الإسلام: «وأما أهل السنة فإنما يعظّمون بالتقوى لا بمجرد النسب» (منهاج الاعتدال: ٤/ ٣٧٦) ثم قال: «أما نفس القرابة فلم يعلق بها ثوابًا ولا عقابًا ولا مدح أحد بمجرد ذلك، وهذا لا ينافي ما ذكرناه من أن بعض الأجناس والقبائل أفضل من بعض فإن هذا التفضيل معناه كما قال النبي ﷺ: **«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»** فالأرض إذا كان فيها معدن ذهب ومعدن فضة كان معدن الذهب خيرًا لأنه مظنة وجود أفضل الأمرين فيه فإن قدّر أنه تعطّل ولم يخرج ذهبًا كان ما يخرج من الفضة أفضل منه... فلا بد أن يوجد في الصنف الأفضل ما لا يوجد مثله في المفضول، وقد يوجد في المفضول ما يكون أفضل من كثير مما يوجد في الفاضل، كما أن الأنبياء الذين ليسوا من العرب أفضل من العرب الذين ليسوا بأنبياء، والمؤمنون المتقون من غير قريش أفضل من القرشيين الذين ليسوا مثلهم في الإيمان والتقوى،

وكذا الحال في بني هاشم، فهذا هو الأصل المعتبر في هذا الباب، دون من ألغى فضيلة الأنساب مطلقًا، ودون من ظن أن الله تعالى يفضل الإنسان بنسبه على من هو مثله في الإيمان والتقوى فضلًا وتقوى، فكلا القولين خطأين متقابلين.

بل الفضيلة بالنسب فضيلة جملة، وفضيلة لأجل المظنة والسبب، والفضيلة بالإيمان والتقوى فضيلة تعيين وتحقيق وغاية، ففضيلة الأول الجملة والمظنة، والثاني فضيلة حقيقة وغاية، فمن كان أتقى كان أكرم..» (باختصار عن منهاج الاعتدال: ٤/ ٦٠١ وما بعدها).

وهنا أوانُ الوقوف على السؤال الكبير: هل الكفاءة في النسب شرط في النكاح، وهل يحق للعصبة حتى وإن بعدوا وبغضوا فسخ النكاح بعد الدخول؟ هل من حجة كفيلة بإظهار عنق الحقيقة وإبلاج وجهها؟

الجواب: هذه المسألة خلافية، فالجمهور على عدم اشتراطه وهو الصحيح، فالإمام مالك على عدم اعتباره طُرًّا

والاكتفاء بكفاءة الدين، واختاره البخاري وابن تيمية وابن القيم والصنعاني والشوكاني وصديق خان وابن باز والألباني والعثيمين في كثير من المعاصرين.

وعند الإمامين أبي حنيفة والشافعي ورواية عن الإمام أحمد اعتباره دون اشتراطه، أي يحق للزوجة وأوليائها إسقاط حقهم في الكفاءة متى شاءوا، وهو المعتمد عند الحنابلة.

ولأحمد في رواية اشتراطه، وهذا من مفردات الحنابلة وبه قال سفيان.

وهل يحق لبعض العصبة فسخ النكاح بإبطال أصل العقد إذا لم يرضوا بمكافأة النسب؟ روايتان عن أحمد وقولان للشافعي، أما عند أبي حنيفة ومالك فليس لهم ذلك، خاصة إذا زوجه الأقرب. والحق أن هذا مبني على ما سبقه، فإن لم يكن النسب شرطًا فلا عبرة بالاعتراض، حتى وإن قيل باعتباره دون اشتراطه.

ولا أعلم دليلًا يجعل الكفاءة في النسب شرطًا في النكاح

لا في أصل ابتدائه ولا في صحته واستدامته، والأشبه بقواعد الشريعة ونصوصها عدم اعتباره. فالراجح قول مالك في اطّراحه. كما أن لاعتباره دون اشتراطه وجاهة ظاهرة والله أعلم.

ولا ينقضي العجب ممن يصحح عقد النكاح برضا الولي والزوجة، ثم يبطله ويمنع استدامته بسبب اعتراض عاصب بعيد، فهلّا طرد أصله منعًا أو تجويزًا؟!

قال شيخ الإسلام: «دليل واحد صحيح المقدمات سليم من المعارضة خير من عشرين دليلًا مقدماتها ضعيفة» (مختصر المنهاج: ٢/ ٨٨٧).

قال العلامة العثيمين: «يجوز أن تزوج امرأة قبيلية من إنسان غير قبيلي... وإذا صح العقد بمقتضى الدليل الشرعي، فكيف يمكن لإنسان أن يفسخه إلا بدليل شرعي؟! ولا دليل. وعلى هذا فنقول: "إذا زوّج الأب الذي هو من القبائل الشريفة المعروفة بمن ليس بقبيلي، فالنكاح صحيح، وليس

لأحد من أوليائها أن يفسخ النكاح، وهذا كله من الجاهلية، فالفخر بالأحساب من أمر الجاهلية» الشرح الممتع (١٢/١٠١ – ١٠٥).

قلت: وهذه فقه عميق للعلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فبما أن العقد قد صح شرعًا فلا يجوز إبطاله إلا بمبطل صحيح صريح وأنّى لهم ذلك.

إذن فما ثَمَّ إلا المكافأة في الدين قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [التوبة: ٧١] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠] وقد زوج النبي ﷺ مولاه زيد بن حارثة بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية. رواه الدارقطني في سننه (٣/٣٠١) وغيره، وأَمَرَ النبيُّ ﷺ فاطمةَ بنت قيس القرشيّة أن تنكح مولاه أسامة بن زيد فنكحها بأمره. رواه مسلم (١٤٨٠) وفي حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: «أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة زوّجَ مولاه سالمًا

ابنة أخيه هند بنت الوليد بن عتبة» رواه البخاري. وهي قرشية مخزومية. ورسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه زوَّجَ ابنتيه الهاشميتين بعثمان بن عفان وهو قرشي أُمَوِي، وتزوج المقداد بن الأسود مولى الأسود بن عبد يغوث ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب الهاشمية، وتزوج بلال بن رباح الحبشي أخت عبدالرحمن بن عوف القرشية. الدارقطني (٣/ ٣٠١) فكما ترى فالمستقر في العصر الإسلامي الأول أن لا بأس من تزوج المولى والأعجمي امرأة عربية نسيبة.

كذلك من جهة النساء، فلا حرج في تزوّج النسيب العربي ممن هي دونه نسبًا وحسبًا، فقد تزوج الرسول الأعظم ﷺ صفية بنت حُيي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وكانت من يهود، وتزوج جويرية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأسرتها مُشركة، وزوَّج أبا العاص بن الربيع ابنته زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وقد تزوج الحسين بن علي أعجمية من الفرس فولدت له عليًّا زين العابدين.

وتأمل هذه الجادّة النبوية قولًا وعملًا واستحضر الاتّباع وحُسن التأسّي: قال ﷺ: **«لا فضل لعربي على عجمي، ولا**

لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى» رواه أحمد (٥/٤١١) والترمذي (٣٢٧٠) وحسنه الألباني، وقال النبي ﷺ: «**إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها، الناس رجلان؛ بَرٌّ تقي كريم على الله عز وجل، وفاجر شقي هيِّن على الله عز وجل، الناس كلهم بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٨]» رواه الترمذي (٣٢٦٦) وقال رسول الله ﷺ: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**» رواه الترمذي من حديث أبي حاتم المزني (١٠٨٥) وفي السند كلام، لكن يعضده ويشهد له حديث أبي هريرة الآخر: «**إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**» رواه الترمذي (١٠٨٤) وجوّد ابن حجر في التلخيص والبلوغ إسناد حديث أبي هريرة في شأن أمره ﷺ

لبني بياضة أن يزوجوا أبا هند، وكان حجامًا. وهو عند أبي داود (٢/ ٢٣٣) وغيره، وضعفه أحمد.

هـذا، ولا يـصح حـديث مرفـوع في اشـتراط الكفـاءة النسبية، إنما وردت بعض الآثار عن الصحابة كعمر وسلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، ولا تصح، وحتى لو صحت فلا تقاوم النصوص الـصحيحة الـصريحة بـل وبالعمـل النبـوي في الاكتفـاء بالـدين دون النسب.

وسنقف قليلًا عند أشهر ما احتجوا به - وكما قدّمتُ - فلم يصح منها شيء؛ فما رُوي من أن النبي ﷺ قال: «**لا تُنكحوا النساء إلا من الأكفاء، ولا يزوجهن إلا ألأولياء**» فقد رواه الـدارقطني في سـننه (٣/ ٢٤٥) بـسند واه، وقـال عنـه: هـذا ضـعيف لا أصـل لـه، ولا يُحـتج بمثلـه. وكـذا البيهقـي (١٣٣/٧) وقـال: هـذا ضـعيف بمـرة، وقـال: «وفي اعتبـار الكفاءة أحاديث أخر لا تقوم بأكثرها الحجة». قال ابـن عبد البر عن هذا الحديث: «لا أصل له، ولا يحتج بمثله» التمهيد (١٦٥/١٩).

ومما احتجّوا به ولا يصحّ حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: **«العرب بعضهم أكفاء بعض إلا حائكًا أو حجّامًا..»** رواه الحاكم (٧/ ١٣٤) وفي إسناده راو لم يسم، وقال أبو حاتم: هذا كذب لا أصل له، وقال: هذا باطل. وقال الدارقطني: لا يصح.

أما حديث **«تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»** فقد أورده ابن الجوزي في العلل المتناهية وأثبت شدة ضعفه، وقد وردت عبارة **«العرق دساس»** في أحاديث أخر حكم عليها الألباني بالضعف (السلسلة الضعيفة: ٢٠٢٣)

ومن الآثار التي احتجوا بها ولا تصح ما نُسب إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأمنعنَّ فروج ذوات الأحساب إلا من الأكفاء» رواه الترمذي وحسنه (٣/ ٣٩٥) ورواه الدارقطني (٢٩٨/٣) وقال في العلل: لا يصح. والبيهقي (١٣٣/٧) وعبدالرزاق (٦/ ١٥٢) فالأثر لا يصح، فالسند الى ابن عمر سأل عنه ابن أبي حاتم أباه فقال: هذا كذب لا أصل له. وقال ابن عبد البر: هذا منكر موضوع. أما السند إلى معاذ ففيه من

لا يعرف، كذلك فيه انقطاع. قال الألباني: لا يصح هذا الأثر بحال.

إذن فهذا الأثر العُمري لا يصح، فإن قيل بصحته، فلعل مردّه حادثة عينٍ، أو لسبب غير ظاهر، وعلى كل حال فلا مقاومة لما صح عنه ﷺ قولًا وفعلًا. بل إن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قد تزوج بأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وهي أرفع منه في قريش نسبًا فهي من بيت هاشم وهو من بيت عدي.

وأما قول سلمان سنن البيهقي (١٣٤/٧) بلفظ «لا نَنكح نساءكم ولا نؤمكم» فقد قال العلامة الألباني بعد تتبع طرق هذا الأثر: «وجملة القول؛ أن مدار هذا الأثر عن سلمان على أبي إسحاق السبيعي، وهو مختلط مدلس، فإن سلم من اختلاطه فلن يسلم من تدليسه لأنه قد عنعنه في جميع الطرق عنه».

وعلى القول بصحته فلعل سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قصد به

التنويه بشأن العرب لا اشتراط الكفاءة النسبية، بدليل صحة إمامة المولى والعجمي للعربي، وهذه سنة ماضية في تقديم الأقرأ بدون اشتراط العروبة، وقد جرى عليها عمل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وقد بوب البخاري في صحيحه بقوله «باب إمامة العبد والمولى» ثم أورد قصة إمامة سالم مولى أبي حذيفة للمهاجرين الأولين قبل مقدم النبي ﷺ المدينة لأنه كان أكثرهم قرآنًا. وذكر أيضًا حديث أنس المرفوع في الإمامة العظمى: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم حبشي، كأن رأسه زبيبة**».

أما استدلالهم بحديث «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**» الذي رواه مسلم (٢٢٧٦) فهذا خارج محل النزاع، فالاستدلال به في هذا الموضع غير مستقيم، إذن فمن اشترط الكفاءة فقد استدل بحديث صحيح غير صريح، أو صريح غير صحيح.

قال ابن عبد البر: قال مالك: «لم أر هذا من أهل الفقه

والفضل ولم أسمع أنه أنكر أن يتزوج العرب في قريش، ولا أن يتزوج الموالي في العرب وقريش، إذا كان كفؤًا في حاله» ـ أي دينه وخلقه ـ التمهيد (١٩/ ١٦٢).

وقال شيخ الإسلام: «من قال إن الهاشمية لا تزوج بغير هاشمي، بمعنى أنه لا يجوز ذلك؛ فهذا مارقٌ من دين الإسلام، إذ قصة تزويج الهاشميات من بنات النبي ﷺ وغيرهن بغير الهاشميين ثابت في السنة ثبوتًا لا يخفى، فلا يجوز أن يحكى هذا خلافًا في مذهب أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس في لفظه ما يدل عنه» نقله عنه المرداوي في الإنصاف (٨/ ١١٠).

وقال شيخ الإسلام الثاني ابن القيم: «..ولم يعتبر القرآن والسنة في الكفاءة أمرًا وراء ذلك، فإنه حرم على المسلمة نكاح الزاني الخبيث، ولم يعتبر نسبًا ولا صناعة ولا غنىً ولا حرية، فجوّز للعبد القِنِّ نكاح الحرة النسيبة الغنية، إذا كان عفيفًا مسلمًا، وجوّز لغير القرشيين نكاح القرشيات، ولغير الهاشميين نكاح الهاشميات» زاد المعاد (٥/ ١٤٦) وقال في

(١٥٩/٥): «والذي يقتضيه الحكم؛ اعتبار الدين في الكفاءة أصلًا وكمالًا، فلا تزوج عفيفة لفاجر، ولم يعتد القرآن والسنة في الكفاءة أمرًا وراء ذلك.. وبعد أن ذكر الله المحرمات من النساء قال تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] ولم يشترط حسبًا ولا مالًا فقال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]».

وقال العلامة الشوكاني: «تزويج غير كفء في النسب والمال من أصعب ما ينزل بمن لا يؤمن بالله واليوم الآخر...فيا عجبًا كل العجب من هذه التعصبات الغريبة والتصلّبات على أمر الجاهلية» السيل الجرار (٢٩١/٢)..ولا عجب فالجاهلية متجذرة عميقًا في النفوس، يسقيها الكبر، ويرعاها الهوى.. ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

وبعدُ أخي القارئ الكريم: قد يخطئ العالم في مسألة، سواء مسألتنا هذه أم غيرها، فتوافق هوىً لسامعها فيركبها

فيهلك. والعالِمُ إذا أخطأ فالواجب أن يُعتَذَرَ له حفظًا لمقامه، لكن لا يُتابع على الخطأ والغلط. وبعض الخلائق يحملون بعض كلام أهل العلم هنا على غير وجهه، وعلم الفتى في غير موضعه جهلٌ. ومن استبصر بَصَر، ومن تصبَّر صُبِّر.

ثم إنّ من مشوا على هذا النهج الجاهلي في ترتيب الفضل والكرامة بين الناس على حسب أنسابهم وأحسابهم وشاقُّوا الله تعالى وحادّوه في قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ورسولَهُ ﷺ في قوله: «**لا فضل لعربي على عجمي...إلا بالتقوى**» هم على قسمين:

فمن رأى أنه على خير فبئس ما اختار! ومن علم خطأه وعدّه من خطاياه المستلزمة للتوبة والاستغفار فأمره أهون، ويا صاحبي: إنّما هي صحيفتك فاملأها بما شئت! ومستودع عملك فأودعه ما أحببت، فإن اليوم عملٌ ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل وتكفيك: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦].

ثم هل يُلزِمُ الناس باطّراح ذلك البتة في النكاح؟!

فالجواب: أن كل حالٍ يُقدّر بقدره، وقاعدة احتمال أدنى المفسدتين لدرء أعلاهما من محكمات الشريعة، ومعمول بها هنا. لذا فإن استطاع إلغاء تلك الجاهلية بلا مفاسد فحسن، أما إن رأى وغلب على ظنه خطر الوقوع في مفسدة أكبر، كالطعن في نسب قبيلته، وأذيّة أبناء عمومته من قبل جَهَلَةِ الناس واتهامهم بكذا وكذا؛ فيرى بعض قرابته أن في ذلك النكاح إزراء بهم، وانتقاص لهم، وخفضًا لمقامهم بين العرب الآخرين، وقد ينتج عن ذلك قطيعة للأرحام، بل واعتداء وسفك دماء، فلا شك أن درء المفاسد معتبر في الشريعة، خاصة فيما يتعلق بالصلة والاجتماع والوئام، ومن المعلوم أن عقد النكاح يُقصد به الاستدامة، لذا فالذي يلحقه من المفاسد مستدام أيضًا في الغالب كما هو مشاهد، كذلك نشوء بعض المفاسد الناتجة عن الفروق بين البيئات الاجتماعية، وبعضها لا يظهر إلا على المدى البعيد، لذلك فقد تكون المصلحة هنا إعمال هذا المبدأ الجاهلي ضرورةً كحال آكل

الميتة، مع براءته من أن يرى نفسه فوق أحد من عباد الله لنسبه وحسبه. فبعض الناس يلجأ لذلك إلجاءً لدرء ألسنة الجهلة واتقاء معرّة لمزهم عن عرضه وعرض بني عمومته وقبيلته، خاصة إن كان بينه وبين بعض الناس خصومة ويخشى شماتتهم في زمن يُنكر فيه المعروف ويُعرف فيه المنكر! فهناك فرق بين الاحتقار للأصل والنسب، وبين من يدفع مفسدة عنه وعن موليته وعصبته، وله عن فعلها مندوحة وسعة، وفي ركوبها مفسدة متوقعة ممن لا يقدرون الأمور حق قدرها، وكثير ماهم!

وإذا تشاجر في فؤادك مرّةً   أمران فاعمد للأعفِّ الأجملِ
وإذا هممت بأمر سوء فاتئد   وإذا هممت بأمر خير فاعجلِ

وليس كل صامت عن حجته مخطئًا في اعتقاده، ولا كل ناطق بها بلا برهان محقًا في انتحاله، وبالجملة فمراعاة الأمر من جميع جوانبه أولى من مراعاة جزء منفصل عن كلّ.

قال الإمام عبدالعزيز بن باز: «والحكم في دين الله أنه لا

فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى، سواء سمي قبليًّا أو خضيريًّا أو مولى أو أعجميًّا، كلهم على حدٍّ سواء، لا فضل لهذا على هذا، ولا لهذا على هذا إلا بالتقوى... ولكن الناس بعد ذلك، خصوصًا في نجد وفي بعض الأماكن الأخرى، قد يقفون عن هذا ويتشدَّدون فيه، على حسب ما ورثوه عن آباء وأسلاف، وربَّما خاف بعضهم من إيذاء بعض قبيلته إذا قالوا له: لم زوَّجتَ فلانًا، هذا قد يفضي إلى الإخلال بقبيلتنا، وتختلط الأنساب وتضيع، إلى غير ذلك، قد يعتذرون ببعض الأعذار التي لها وجهها في بعض الأحيان ولا يضرُّ هذا وأمره سهل، المهم اختيار مَن يصلح للمصاهرة لدينه وخلقه، فإذا حصل هذا، فهو الذي ينبغي، سواء كان عربيًّا أو عجميًّا، أو مولًى أو خضيريًّا، أو غير ذلك، هذا هو الأساس، وإذا رغب بعض الناس ألا يزوج إلاَّ من قبيلته، فلا نعلم حرجًا في ذلك، والله ولي التوفيق» (مجموع فتاوى ومقالات الشيخ عبد العزيز بن باز) (١٤٧/٥).

وعلى كل حال فما أجمل التفاؤل، وما أضيق العيش لولا

فسحة الأمل..وكما قال النابغة في الغساسنة:

ولا يحسبون الخير لا شرّ بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب

ولله كم من رُوحٍ أُزهقت وبيوت هُدمت وأواصر هُذمت وأسرٍ شرذمت بسبب راية عُبِّيَّةِ الجاهلية، أعنق أصحابها في الباطل وأرقلوا! كما قيل: قد كنا نعجب من حرب البسوس في ضرع نابٍ، ومن حرب بعاث في مخرف تمر، وحرب غطفان في سبق دابة، فجاء بعض قومنا بالعجب الذي أبطل كل عجب! فصعقوا العباد بأمور مستنكرة بُشِعَ الناسُ بها وضاقوا بها ذرعًا، ووقعوا منها وبها في أضيق حرج!

أبي الإسلام لا أب لي سواه وإن افتخروا بقيس أو تميم

هذا ومما يُعلم أن زواج العربي من امرأة لا تكافئه غير مؤثر في نسبه ولا نسب ذريته لانتسابهم إلى أبيهم دون أمهم، ولما تطاول أحد بني العباس على أخيه وعيّره بأمه فَلَجَهُ بقوله: انظر لهاجر المولاة وما ولدت، ولسارة وما ولدت!

فأفحمه، وبئس مطية الرجل السِّبَاب والتعيير. كذلك لا يتغير نسب المرأة إذا تزوجت من غير نسيب، أما أولادها فتبع لأبيهم.

وكلُّ أمرٍ على مقدار هيبته وكلّ صعبٍ إذا هوّنته هانا

هذا وإن الموضوع ذو شقين؛ منعُ الفخر، ومنعُ التَّحَزُّبِ إلا بالحق، وللأخير رسالةٌ لاحقةٌ إن شاء الله تعالى.

أيها الأعزاء: الدنيا لا تستحق بعض عنائها فما بالكم بمكابدته؟! ألا وإنا عن هذه الدار لراحلون كأسلافنا..

سبقنا الى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئة وذهابِ

والزهد فيها ترياق مجرب للنّجح والفلاح، ومن الزهد فيها الزهد في الثناء وترك المبالاة بالذم إن كان بباطل، وبخاصة إن كان من أجل معروف أنكره جاهل، وليت الذي بيني وبينك عامرٌ..

تملكها الآتي تملّكَ سالب وفارقها الماضي فراق سليب

فكن يا ذا الهمّة القعساء، والصبر الطارف والتليد، ممن انتزع عن لجاجة الشّكِّ وزَمَانَةِ الخَوَرِ، فأضحى ممن أصاب خيرًا فأنجح وأفلح، لا ممن أخطأه الخير وأصابته مَعَرَّةُ الشّرّ في مقتل فخاب وخسر، أو كمن جمع علمًا وجمع معه جهلًا، وإذا أردتَ أن تُفحِمَ عالِمًا فأحضر إليه جاهلًا! عياذًا بذي الجلال والإكرام من الخذلان والخسران.

وما كلُّ من قال قولًا وَفَى ولا كُلُّ من سِيْمَ خسفًا أَبَى

والمَخْرَجُ من تلك المضائق يكون بعد توفيق الله بالاستسلام لله حقيقة لا دعوى، ولا تثبتُ قدم الإسلام إلا بالتسليم المطلق لمن رضيناه ربًّا ومعبودًا، سبحانه وبحمده، واتّباع سنة من رضيناه نبيًّا رسولًا، وآية ذلك وبرهان ما هنالك؛ أن ندور مع أمر الله وشرعه حيث دار بنا من غير روغان كالثعالب، بل استقامة وانقيادًا.

وأحق ما صبر امرؤٌ من أجله ما لا سبيل له إلى تغييره

كذا لا بد من الجديّة في التوعية والتبصير والدعوة

الحسنى للعباد، ونشر مبادئ الإسلام الأصيلة دون لوثات الجاهلية التليدة والدخيلة! فليس هناك بُدٌّ لمريدِ فلاحٍ من نَبْذِ الجاهلية وهدمها ابتغاء وجه الله، وجه الله فقط والدار الآخرة، حتّى وإن كان أمرًا دونه متالفٌ وسدود، لا يبالي بمحملٍ شديد ومرتقىً صعبٍ، ألا فابتهج يابن الأكرمين:

اذا هم لم تُردعْ عزيمةُ همه ولم يأت ما يأتي من الأمر هائبا
إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانبا

فعلى المؤمن أن يكون بالله ولا يبالي بسواه، ولا يصرفه عن التجرُّدِ للحقِّ إسرافٌ في مديح، أو إغراقٌ في هجاء، ولا يُعشي بصيرته تدبيجُ مَمَادِح شابَهَا الكذبُ وخالطها التزيُّدُ وبُنِيَ أساسُها على التكلُّف، وسيهيئُ الله له ألسُن أهل المروءات وذوي الصدق والوفاء ممن يُستنام إلى قولهم ويصدَّقُ خبرُهم، شهداءُ الله الذين إن قالوا صدقوا وإن مدحوا اقتصدوا، سيرفعه الله ولو بعد حين..فكن ما شئت ولا يسبقك الأوّل حين قال:

إذا رضيتْ عنِّي كرامُ عشيرتي فلا زالَ غضبانًا عليَّ لئامُهَا

وصلى اللّهم وسلم وبارك على السراج المنير، والبشير النذير، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي
٢٦/ ١٢/ ١٤٣٣
aldumaiji@gmail.com